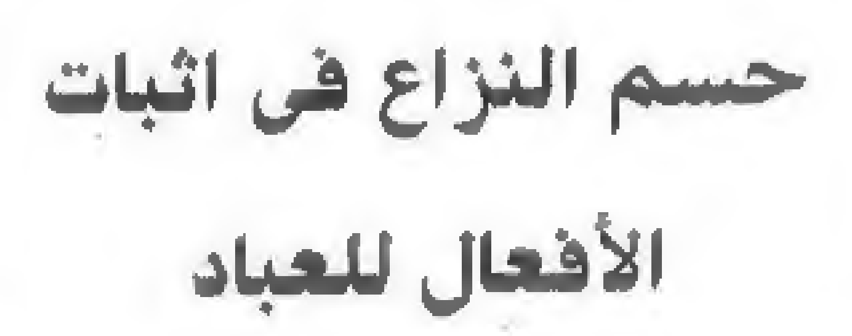

حسم النزاع فى اثبات الأفعال للعباد

الأستاذ الدكتور
عبد المعبود مصطفى سالم
قسم العقيدة والفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك ربى وأستعينك وأستغفرك من ذنبى وأستلهمك الرشاد فى أمرى واصلى وأسلم على خير رسلك وافضل أنبيائك سيدنا ومولانا محمد (ﷺ) خير هاد لأقوم طريق واعظم مرشد لأفضل دين عليه وعلى اله وصحبه واتباعه ومن اقتفي أثره وسار على نهجه إلى يوم الدين .

أما بعد :-

فإن حديثنا الذى سنكتب فيه الآن هو حديث خطير وجد عظيم يتعلق بمشكلة شائكة طالما تاهت فيها العقول وشتت فيها الأفهام .

إن الحديث في افعال العباد من الموضوعات التي تكلم فيها جل علماء العقيدة والكلام وربما أسهبوا فى بعض كتاباتهم فى حديث طويل تضاربت فيه الاقوال تضاربا كادت تضيع فيه معالم الحق .

وسادلى بقلمى فى هذه المسألة مستلهما ربى سبحانه الإعانة محاولا أن أعرض هذه القضية قضية (أفعال العباد) بأسلوب سهل إن شاء الله تعالى محاولا عرض أقوال المذاهب فيها وما توصلت إليه في هذه المسالة إذ أن هناك عدة تساؤلات حول هذه المسالة .

طالما طرحت فى القديم وفى الحديث خاصة بالنسبة إلى الشباب من مثل هل الإنسان مجبر أم غير مجبر ؟؟ مسير أم مخير ؟؟ وموضوع الجبر والاختيار ؟؟ وهل الإنسان هو الذى يخلق أفعال نفسه ؟؟ أم هى مخلوقة لله تعالى ؟؟ وإذا كانت مخلوقة لله تعالى فكيف احاسب عليها ؟؟ طالما أن الله هو الذى خلقها ؟؟ وقدرها على ؟؟ هذه بعض الأسئلة وغيرها تطرح حول

هذا الموضوع ، بعض الناس يسأل عنها بحد الشجاعة في نفسه والبعض الآخر لا يسأل عنها إذ يتحرج من طرحها لكن على أية حال بحد مثل هذه الأمور في الواقع يجب أن تناقش في وقت من الأوقات خاصة وأن الله قد ميز الإنسان بالعقل والفكر والروية وها أنا ذا عازم على الحديث في هذه المسألة إن شاء الله تعالى ونسأل الله أن يوفقنا وأن يسدد خطانا إلى ما يحب ويرضى إنه نعم المولى ونعم المجيب .

تمهيد : (أفعال الله وأفعال العباد) : -

ما المقصود بأفعال العباد : ؟؟ ما المقصود بأفعال الله تعالى ؟؟

المقصود بأفعال العباد:

كل ما يصدر عنهم من قول أو فعل سواء أكان خيرا أم شرا طاعة أم معصية إلى آخر تلك الأمور التي تتعلق بحياتهم وتصرفاتهم .

المقصود بأفعال الله تعالى :

إن المقصود بأفعاله عز إسمه كل شئ صدر عنه سبحانه ومن بدهيات الأمور لدى العقلاء إن كل شئ في الوجود هو من صنعه تعالى وخلق من خلقه عز إسمه بل وفعل من أفعاله إذ يجوز في حقه إيجاد الممكنات وعدم الإيجاد لها والإيجاد والخلق بمعنى واحد وهو بمعنى تعلق القدرة بوجود المقدور فإن تعلقت به فعلا أوجدته وإن تعلقت بالحياة سمى إحياء أو بالموت سمى إماته أو بالمرزوق سمى رزقا أو بالمطعوم سمى إطعاما وهكذا إلى آخر .

وكما يجوز على الله الفعل يجوز عليه الترك اى ترك إيجاد الممكنات فإيجاد الشئ وعدمه بالنسبة إليه سواء فله سبحانه حرية التصرف إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل فكل شئ في الكون راجع إليه في الوجود حتى بعثه الرسل عليهم السلام رحمة بعباده وإثابة العاصى وتعذيب المطيع لو أراد ومنها الشقاوة والسعادة ومعناه خلق قدرة الطاعة في عبده وخلق قدرة الكفر والعصيان في الآخر فالاول يسمى هداية وتوفيقا والثاني يسمى خذلانا وضلالا (١).

---

(١) راجع حاشية الصاوى على شرح الخريدة – ص ٨٧ وما بعدها وانظر أيضا شرح البيجوري على الجوهرة – ص١ وما بعدها من القسم الثاني سنة ١٩٦٨م .

وحديثنا إن شاء الله تعالى معقود للحديث عن أفعال العباد وآراء العلماء فيها وما توصلت إليه من نتيجة فى هذه المسألة هى صائبة من وجهة نظرى والكمال لله وحده قد إختلف مع غيرى فهذا هو شأن البحوث وهذا هو شأن العقل البشرى غير المعصوم ويكفى هنا أن نعتقد فى قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

تحقيق المقام فى خلق الأفعال :-

ليس من المبالغة فى شئ إذا قلت إن مسألة خلق الأفعال من المسائل المهمة التى دار حولها النقاش والجدال الحاد فقد أخذت جدلا كثيرا بين أهل السنة من ناحية وبين المعتزلة من ناحية أخرى بل ربما احتدم الأمر ووصل الخلاف بين المتكلمين أهل سنة ومعتزلة وبين الفرق الأخرى من جانب آخر على ما سيأتى بيانه قريبا إن شاء الله تعالى أقول وبالله التوفيق .

إن الحديث فى هذه المسألة مسألة خلق الأفعال بالنسبة للعباد يلزمنا أن نحصر آراء العلماء وأهل الفرق المختلفين فى المسألة حتى يتضح لنا وجه الخلاف وكيفية الرد عليه أو تدعيمه بالحجة بالنسبة للموافقين والحق أن فخر الدين الرازى قد جمع لنا معظم الآراء فى كتابه محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين فذكر لنا جملة من الآراء معزوة إلى أربابها وأخذ فى الرد عليها إذا خالفت أو تدعيمها بالحجة إذا وافقت (٢) لكن قبل سرد هذه الآراء نقول اتفقت كلمة أهل الحق على أن الأفعال

(١) سورة آل عمران ، آية رقم ، ٢٦

(٢) انظر الآراء بالتفصيل فى كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين : ص ١١٤ وما بعدها من صفحات مكتبة الكليات الأزهرية .

الاضطرارية مخلوقة لله تعالى ولا دخل للعباد فيها وذلك مثل حركة ارتعاش اليد ونبضات القلب وعملية الهضم إلى آخر وخالف المجوس، حيث ذهبوا إلى أن الأفعال كلها الاختيارية والإضطرارية مخلوقة للعبد ولا اختيار للإله في شئ منها فكلها مخلوقة للعبد (١) وقد أحسن الرد عليهم الشيخ ابن قيم الجوزية حيث قرر بأن العقول السليمة والفطر الصحيحة لا يسعها إلا أن تضع هؤلاء في مصاف الحيوانات التي لا تعقل أو في مصاف المجانين الذين لا يفطنون إذ أنهم برأيهم هذا قد جانبوا الصواب بنفيهم عن الإله تعالى القدرة والإرادة والتأثير فعلى رأيهم أن الله تعالى لا يستطيع أن يضل أو يهدى بل أخرجوا طاعة الملائكة وعبادة الخلق عن ربوبيته تعالى ومشيئته كذلك فكل هذا نتيجة مترتبة على منهجهم الباطل .

وقد نطقت الأديان السماوية بتكفيرهم ولعنهم وجعلهم وقود جهنم (٢) وعلى العكس : من ذلك تماما نشأت فرقة الجبرية كرد فعل مضاد لهذه الفرقة السابقة وهذا شئ طبعي إذ أن كل فعل له رد فعل مضاد له في الحركة مساو له في الإتجاه فقد ذهبت الجبرية إلى أن الأفعال كلها إضطرارية وأنها مخلوقة لله تعالى وليس للعبد أي دخل فيها وعلى حد تعبيرهم وتصورهم فإن الإنسان كريشة معلقة في الهواء تسيرها الرياح كيف تشاء وكما ذكرت فإن هذه الفرقة قد قامت أصلا كرد فعل للفرقة السابقة فقد عملت كل جهدها للرد على بدعة المجوس فوقعوا في الخطأ كما أخطأ المجوس من قبل حيث قابلوا الباطل بباطل مثله حقا كانت غايتهم نبيلة لكن وسيلتهم كانت رديئة ومن هنا وقعوا في الخطأ إذ أنهم بفكرتهم هذه نفوا أن يكون هناك أي أثر للعبد في فعله وكسبه فحسنى الكسب والوصف نفوه عن العبد بل غالى البعض منهم

---

(١) ابن قيم الجوزية : شفاء العليل – ص ٧٨ – طبع : دار المعارف بمصر أيضا العقيدة الواسطية – ص ٩٠ .

(٢) شفاء العليل : ص ٧٨ .

فى القول بزعمه أن أفعال العبد هى عين أفعال الرب تعالى ولا تنسب إلى العبد إلا عن طريق المجاز (١) .

على أن الجبرية فيما يذهبون ليس لهم من دليل يدعم باطلهم سوى أنهم يربطون بين المشيئة الإلهية والعلم حيث جعلوا للعلم الإلهى تأثيرا فى فعل العبد وهذا من خطلهم وفحش فهمهم إذ من الواضح البين لدى أصحاب العقول أن العلم ليس من صفات التأثير بل هو مجرد الكشف والوضوح ثم إن الله تعالى ما أطلع أحدا من عباده على علمه القديم الأزلى حتى يتعلل به فى إتيانه للمعاصى ثم إن الإرادة الإلهية إنما هى للتخصيص والترجيح وليست للتأثير كذلك (٢) وربما دعم هؤلاء باطلهم ببعض من كتاب الله عز وجل من مثل قوله تعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٣) فى هذه الآية نفى الله عن نبيه (ﷺ) الرمى وأثبته لنفسه فدل ذلك على أنه لا دخل للعبد وربما استدلوا كذلك ببعض الأحاديث الشريفة من مثل قوله (ﷺ) [لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله (ﷺ) قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل] (٤) فهذا الحديث يدل على أن الجزاء غير مرتب على العمل(٥) .

---

(١) يراجع سعد الدين التفتازانى : شرح المقاصد - ج٢ - ص١٣٦ - شفاء العليل - ص ٧٨ - شرح البيجورى على الجوهرة - ج٢ - ص ٨ .

(٢) نفس المراجع والصفحات .

(٣) سورة الأنفال : آية رقم : ١٧ .

(٤) الحديث رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما ورواه الإمام أحمد فى مسنده وابن ماجة فى سننه .

(٥) راجع شرح العقيدة الطحاوية : بتعليق دكتور التركى - ص ٦٤١ - طبع مؤسسة الرسالة .

على أننا لو دققنا النظر لوجدنا أن غالب من يتمسك بهذه الحجة إنما هم المنغمسون فى الشهوات واللذات من المتنطعين الذين يريدون أن يطلقوا العنان للشهوات لتفعل النفوس الضعيفة ما تحلو لها وما تشاء يفعلون المعاصى ثم يحتجون لمعاصيهم بأن الإنسان مجبر على فعله الذى قدره الله عليه وعلمه فى الأزل بحيث لا يستطيع الإنسان أن يفعل الطرف المقابل لما علمه الله ونسى هؤلاء أن العلم ليس من الصفات التأثيرية على ما ذكرت سابقا وفوق هذا كله فإن رأيهم مخالف لضرورة العقول التى تقضى بأن الإنسان يجد تفرقة ضرورية بين أفعاله الإختيارية وبين الأخرى الإضطرارية إذ يقرر أن الإضطرارية لا دخل له فيها وأن الإختيارية له فيها حرية وإختيار والأعظم من ذلك كله أن رأيهم هذا يترتب عليه بطلان الثواب والعقاب والمدح والذم ونسبة الكذب إلى الأنبياء فيما أخبروا به عن الله تعالى من نعيم لمن أطاع وعذاب أليم لمن عصى (١) والخلاصة أن الجبرية غلوا فى إثبات القدر كما شاهدنا سابقا حيث نفوا فعل العبد أصلا تماما كما غلت المشبهة عند إثبات الصفات فوقع منهم التشبيه أى شبهوا الله بخلقه والقدرية نفاة القدر جعلوا من العباد خالقين مع الحق تبارك وتعالى ولهذا عدهم أهل الحق مجوس هذه الأمة على ما بينا رأيهم أى المجوس - سابقا ورددنا عليهم - بل إن شئت فقل إن هؤلاء أردأ من المجوس من حيث إن المجوس أثبتوا إلهين خالقين وهؤلاء أثبتوا خالقين لا حصر لهم (٢).

ومن حقنا أن نرمى الجبرية بالجهل وعدم الفهم الا ترى أنهم فى إستدلالهم السابق فى الآية الكريمة (وما رميت إذ رميت) إلى آخر الآيه أن هذه الآية حجة عليهم وليست حجة لهم وما وقع ذلك إلا من خطئهم

---

(١) ينظر شرح المقاصد للسعد : ج٢ - ص ١٢٦ - أيضا البيجورى على الجوهره - ج٢ - ص١٠ .

(٢) قا ن شرح العقيدة الطحاوية :ص ٦٤٠ بتحقيق : دكتور عبد الله التركى / شعيب الأرؤوط - طبع مؤسسة الرسالة

وقلة فهمهم فالآية التي معنا الآن نسوا ان الله تعالى أثبت لرسوله (ﷺ) رميا عندما قال [إذ رميت] والمعلوم إن المثبت غير المنفى وذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة وكل منهما يسمى رميا ويكون المعنى على ذلك وما أصبت إذ حذفت ولكن الحق تعالى هو الذى أصاب وإلا اضطرد ذلك فى افعال كثيرة من مثل قولك وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى وما زنيت إذ زنيت ، وما سرقت إذ سرقت ولكن ، ولا شك فى ان فساد ذلك من الوضوح بمكان عند من لديه مزعة عقل (١) كما رددنا عليهم استدلالهم بالآية الكريمة يمكن ان نرد عليهم استدلالهم بالحديث الشريف [لن يدخل أحدكم عمله الجنة] والظاهر من هذا الحديث انه ينفى ترتب الجزاء على العمل واقول إن ترتب الجزاء على العمل من الامور التى ضلت فيها الجبرية تماما كما ضلت فيها القدرية كذلك لكن الله تعالى هدى أهل الحق من أهل السنة وتحقيق ذلك أن الباء فى الحديث التى هى فى النفى غير الباء التى هى فى الإثبات فالمعنى عليه – والله اعلم – فى قوله (ﷺ) [لن يدخل أحدكم الجنة بعمله] الباء هنا باء العوض على معنى أن يكون العمل ثمنا لدخول الرجل الجنة وإنما ذلك برحمة الله وفضله وأما الباء التى فى قوله تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٢) ونحوها من مثل قوله تعالى : [ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ (٣) فهذه يقال لها باء السببية أى بسبب عملكم ومعلوم أنه تعالى خالق للأسباب خالق للمسببات إذن رجع الكل إلى محض فضله وكرمه ورحمته (٤) فكل دليل تقيمة هذه الفرقة (الجبرية) فى الحقيقة إنما يدل على ان الله تعالى إنما خالق كل شئ وانه هو القادر على كل شئ وأن أفعال خلقه هى من جملة افعاله ومن جملة ما خلق وانه ما

---

(١) انظر المرجع السابق – ص ٦٤٢ .

(٢، ٣) الآيتان على التوالى – سورة فصلت : آية رقم : ١٧ – وسورة الاعراف

(٤) انظر : شيخ الإسلام : ابن تيمية : جامع الرسائل – ص١٤٦ وما بعدها من صفحات أيضا ابن القيم حادى الأرواح –ص٦١ شرح البيجورى على الجوهرة –ج٣–ص١٢

شاء كان وما لم يشأ لم يكن لكن لا قدرة أبداً على نفي القدرة عن العبد ولا نفي أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركات المرتعش وأنه كريشة معلقة بالهواء تحركها هبوب الريح وحركة الشجر ولذلك نراهم يدعمون باطلهم هذا بأدلة المرتعش أو الفهم من مثل قوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (١) وقوله عز من قائل ﴿خالق كل شيء فاعبدوه﴾ (٢) وقوله ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ (٣) إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة في الكتاب على أن هذه الأدلة وما في معناها هي وإن أثبتت الفعل لله تعالى إلا أنها لم تنف أن يكون للعبد كسب واختيار فليس في وسعهم أن يأتوا بدليل فيه يثبتون أن العبد ليس قادراً ولا مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته واختياره (٤) بعد أن استعرضت الرأي عند الجبرية ورددنا عليهم فرأيتهم يمكن علينا أن نستعرض آراء من سنة بالتفصيل مقتفين برأي المعتزلة فكلاهما قالوا بالأفعال الاختيارية منسوبة إلى العبد لكن على خلاف بينهم وهنا نستعرض آراءهم مع التعقيب

مسألة خلق الأفعال بالنسبة للعبد

اختلف رأي أهل السنة من الأشاعرة في هذه المسألة

رأي الأشعري :

يرى الشيخ أبو الحسن الأشعري أن أفعال العباد كلها الاضطرارية والاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وأنها مخلوقة له تبارك إسمه ولا تأثير لقدرة العبد في مقدوره أصلا بل القدرة للعبد والمقدور واقعان بقدرة الحق جل إسمه

(١) (٢) (٣) الآيات على التوالي سورة الصافات آية رقم ٩٦ – سورة الأنعام آية رقم ١٠٢ – سورة التكوير آية رقم ٢٩

(٤) هدى شفاء العليل ص ٨٠ البيجوري على الجوهرة ج٢ ص ٥

رأي الباقلاني :

ذهب الشيخ أبو بكر الباقلاني عليه رحمة الله تعالى فإنه يرى أن ذات الفعل واقعة بقدرة الله تعالى طاعة أو معصية، فالطاعة كالصلاة والصيام مثلاً، والمعصية كالسرقة والزنا مثلاً، وصفات الفعل واقعة بقدرة العبد.

رأي الجويني :

إمام الحرمين وتبعه أبو الحسين البصري من المعتزلة، ووافقهم [illegible] للفلاسفة في الأفعال واقعة بقدرة خلقها الله تعالى في العبد، فالله وجد في العبد القدرة والإرادة التي يحصل بهما المقدور (١)

رأي الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني

(٢) إن رأي الأستاذ أبي إسحاق في هذه المسألة هو أمر يحتاج إلى وقفة حول ما تردد عنه من قول في الأفعال الاختيارية، حيث إن هذه المسألة قد ثارت حوله نقاشات حادة وكلام كثير، وما نقل عنه رضي الله عنه أنه كان يقول بأن الأفعال الاختيارية واقعة بالمؤثرين: مجموع قدرة الله وقدرة العبد، وأنها فعل الله على الحقيقة وفعل الإنسان على الحقيقة كسباً، وقد سار على دربه من أهل السنة فريق منهم الباقلاني يرحمه الله تعالى (٢)، لكن ما هذا الذي يذكره الأستاذ الإسفراييني ؟؟ وما معنى هذا الكلام الذي نسب إليه ؟؟ إن المقام هنا يحتاج إلى تحقيق وإلى وقفة متأنية مع الأستاذ خاصة وأنه منسوب إلى أهل السنة والجماعة ؟

فهل هو بهذا يخالف إمام مذهبه خاصة الأشعري ؟؟ أم ماذا ؟؟

---

(١) انظر الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٩٤ مكتبة الكليات الأزهرية

(٢) شفاء العليل ص ... الباجوري على الجوهرة ج٢ ص ... وانظر المحصل ص١٩٤

لو دعينا إلى الشيخ الأشعري لوجدناه يرى أن الأفعال الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وليس للعبد فيها سوى الكسب والاختيار (١) على ما شرحناه سابقا كما نص على ذلك في النصوص التي نقلناها عنه المنسوبة إليه(٢) من الموجودة في كتبه الأصلية والمنسوبة إليه و المطبوعة في مكاتبنا ومطابعنا الآن (٣) فهل وقع خلاف بين الأسفراييني وشيخه الأشعري ؟؟ حقيقة أم ماذا ؟ بل هل وقع الخلاف بينه وبين أئمة عصره كذلك ؟؟ أم ماذا يكون موقفه في هذه المسألة ؟؟ أم كيف تكون الأفعال بالقدرتين بقدرة الله على الاستقلال وقدرة العبد على الاستقلال كذلك ؟؟ مع أن هذا القول يؤدي إلى الاشتراك بين القدرة القديمة قدرة الله تعالى وبين القدرة الحادثة قدرة العبد على أن القدرة القديمة لا شريك لها ولا معين (٤) وكيف يجتمع قدرتان مؤثرتان على مقدور واحد ؟؟ كيف يكون هناك شريك لقدرة الله تعالى ؟؟ وهل قدرة الله عاجزة عن بعض الأمور حتى تحتاج إلى مساعدة ومشاركة ؟ كل هذه أسئلة ترد على رأي الأستاذ القائل بالقدرتين وهو من أغلب ما يعترضه على الأستاذ وهو من أسئلة أهل السنة كيف يسند الفعل إلى قدرتين (٥) بل نحاول التخلص بالسؤال فقال على رأي الأستاذ هل قدرة الله أقوى أم قدرة العبد أقوى نعم كل هذه الأسئلة وغيرها توجه إلى الأستاذ إذا صح عنه القول بالقدرتين وقد وجه بالفعل صاحب المواقف بعض هذه الاعتراضات إلى الأستاذ فقال أما الأستاذ فإن أراد أن قدرة العبد غير مستقلة بالتأثير وإذا انضمت إليها قدرة الله تعالى صارت مستقلة بالتأثير بتوسط هذه الإعانة على ما

(١) الكسب عند الأشاعرة : هو مجرد مقارنة قدرة العبد للفعل من غير تأثير لها فيه وإنما بتأثير قدرة الله تعالى وعند الماتريدية هو العزم و التصميم على الفعل عزما جازما وتصميما أكيدا

(٢) شرح العقيدة الواسطية ص ٩ شرح المقاصد للسعد ص٢٦ البيجوري على الجوهرة ج٢ ص ٨

(٣) راجع اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٤٣

(٤) البيجوري على الجوهرة ج٢ ص ٢

(٥) شرح المقاصد ج٢ – ص ١٢٦ ، الجوهرة ج٢ – ص ٢

هذه النقطة فقريب من الحق ولو أن كلا من القدرتين مستقلة بالتأثير فباطل (١) على أنني أستبعد أن يصدر مثل هذا الرأي الأخير من الأستاذ فهو عالم جليل من أقطاب أهل السنة وأستاذ جليل من أساتذة المدرسة الأشعرية المشهود لهم بالاحترام والتقدير من علماء عصره فمن بعدهم كالباقلاني والجويني والصاحب بن عباد وغيرهم من الأفذاذ إنما أثبت القدرتين على معنى أن التأثير للقدرتين فقدرة الله للخلق والإيجاد وقدرة العبد ليس لها سوى مجرد الكسب والاختيار في الفعل فقط فهذا ما يليق بحال الرجل وتاريخه بالنسبة للدفاع عن العقيدة وما ألفه فيها من كتب يرد على أهل البدع والزيغ والضلال وبهذا يسير الأستاذ في ركب أهل السنة والجماعة ولا يشذ عنهم قيد أنملة ولعله مما يقوى وجهة نظري هذه ويوضحها ذكر أن صاحب كتاب شفاء العليل وكذلك صاحب كتاب إشارات المرام قد بان لنا من وجه الصواب في حقيقة رأي الأستاذ

قال ابن قيم الجوزية ، وقالت فرقة أخرى منهم القلانسي وأبو إسحاق الإسفراييني في بعض كتبه أنها فعل الله على الحقيقة وفعل الإنسان على الحقيقة لا على معنى أنه أحدثها بل على معنى أنه كسبه (٢) كما وضح لنا البياضي أيضا فكرة الأستاذ وشرحها بما لا يدع مجالا للشك من حد أو يفتح باب للخصم فقال . واختيار العبد مؤثر في الاتصاف دون الإيجاد فالقدرتان مؤثرتان في محلين وهو الكسب لا مقارنة الاقتدار بلا تأثير أصلا وهو اختيار الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني (٣) ثم يذكر بعد ذلك أن هذا هو اختيار أعلام مذهب رأي الأشعري كالقاضي أبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني في قوله الأخير فعند الجويني رضي الله عنه كما حكى لنا ذلك البياضي أن اختيار العبد

---

(١) شرح المقاصد ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) شفاء العليل : ص ٨٠ لابن قيم الجوزية

(٣) البياضي إشارات المرام – ص ٥٥

مؤثر في الإيجاد بمعاونة قدرة الله تعالى فلا تجتمع القدرتان المؤثرتان بالاستقلال ولا يلزم مثلي تعريفين لأن المماثلة بالمساواة من وجه يستوي المتماثلان فيه وإن لم يكن من كل وجه [١] من كل ما تقدم يتضح بما وجه نصوص في الأستاذ الأسفرايني فهو وإن كان قد قال حقا بالقدرتين إلا أن هذا لا يدعونا أن نعتقد بأنه كان يعتقد أن القدرتين مستقلين بالفعل دون احتياج من أحدهما بالأخرى بل الحق والصواب أنه كان يرى أن القدرة الإلهية إنما هي للخلق والإيجاد وأما قدرة العبد فهي لمجرد الكسب والاختيار في الفعل ومما يوضح أن رأي كثير مما نقله الشهرستاني عن الأستاذ أبي إسحاق من أن الأستاذ قد ذهب إلى التفرقة بين القدرتين قدرة الله وقدرة العبد فالاسفرايني يرى أن الإنسان يعبر عن نفسه بأفعاله ولا يحيط علما بجميع وجوه اكتسابه وأعماله ولا يستطيع أن يفعل إلا بمعونة من قدرة الله تعالى فرتبتها بعض ذلك دون حاجة إلى معين كما أنه تعالى يحيط علما بجميع وجوه أفعاله تعالى الله [١] وهذا الكسب الذي يثبته الأستاذ للعبد لا يعدو أن يكون وقوع الفعل بقدرته لكن بتقدير من العبد بأن يقرر بذلك دون معونة وهل تأتي هذه المعونة إلا من الله عز وجل

من حقيقة الخلق بين أنه لله تعالى فهو وقوع بمعونة منه تعالى مع صحة الأسفرايني فالإنسان به وبهذا يليق قدرة العبد قدرة الخالق تعالى إنه عند أستاذنا الأسفرايني على أن القاضي الباقلاني يتفق مع الأستاذ في كل ذلك (٢)

بعد هذا التحقيق نعلم برأي الأستاذ فيه بالإمكان أن نقول لا يجوز لأحد أن ينال منه أو يرميه بعدم الصواب بعد ما ظهر جليا أنه لا

نفس المرجع السابق وتصحيح ... مصطفى ... على الجوهرة ج٢ ص٢ أيضا الشهرستاني نهاية الإقدام في علم الكلام ص٧٧

٢) الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٨٧

(٣) المرجع السابق ذكره ص ٧٧

يخرج عن أهل السنة والجماعة ولا يخالف أهل الحق في شيء مما خالف طريق الجماعة ولا حاد عنه عند تأمله . من الواضح البين أن أفعال العباد هي من الأمور الممكنة وكل ممكن فهو واقع تحت قدرته تعالى وتأثيره وحده دون سواه إذ لو فرض وقوعه بقدرة الغير فهل هي مستوية مع قدرة الله تعالى أم هي أقوى أم بالعكس فلو فرض التساوي لزم ترجيح أحد القدرتين المتساويين - في الغرض - بلا مرجح بل ترجيح المرجوح لو فرض أن قدرة العبد أضعف من قدرة الله تعالى ، على أنه لو وقع بالقدرتين جميعا لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد وهذا ظاهر البطلان والفساد ثم إنه لو وجد بقدرة العبد لما بقي لله تعالى قدرة على الإيجاد لأنه يستحيل إيجاد الموجود فيلزم كون العبد الضعيف معجزا لقدرة الرب العظيم وهذا ما لم يقل به عاقل مؤمن بالله تعالى ، فضلا عن أن يقوله عالم جليل مثل الأستاذ في رجاحة عقله وقوة فكره فهذا كله بعيد عن رأيه كما اتضح سابقا ( )

نعم هذا الخلاف سار بين المعتزلة إذ عندهم أن أفعال العباد مخلوقة للعباد أنفسهم أعني الأفعال الاختيارية بل قد وقع الخلاف بينهم هل يقدر المولى تعالى على مثل مقدور العبد أثبت ذلك منهم أبو علي وأبو هاشم على حين يرى الكعبي وأتباعه من البغداديين ينفون ذلك (٢)

وقد بين لنا أهل السنة أن الإنسان لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية لولا الإعانة من الله تعالى فالعبد عاجز على من الرب فكيف يخلق أفعال نفسه الاختيارية بالاستقلال على ما زعمت المعتزلة . مع أنه لا يعلم تفاصيل حركاته وسكناته التي تصدر عنه فهو لا يحيط علما بوجوه

---

(١) شرح المواقف للإيجي ج٨ - ص١٥٠ طبع سنة ١٩٠٧ دار الكتب . أيضا شرح المقاصد - ج٢- ص١٢٣ .

(٢) يراجع نهاية الأقدام في علم الكلام ص ٧٢ وما بعدها ص ٨٧

(٣) يراجع المقاصد للسعد ج٢ - ص ٢٢ شرح المواقف ج٨ ص ١٥

شرح العقيدة الواسطية بتعليق دكتور هراس ص ٩٠

لنفسه وأعماله ثم كيف تكون من خلقه ؟ فالحق أن هذه الحجة قوية من أهل السنة وقد سندها من كتاب الله عز وجل قوله تعالى ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) ولله المثل الأعلى فإن المهندس إذا صمم آلة من الآلات فإنه لا شك يعلم تفاصيلها من التراكيب المختلفة التي صممت عليها تلك الآلة وليس مثل الإنسان إذ ليس خالقا لأفعاله الاختيارية كما هو ؟ فتجربة لكل من تو جب على من يخطو خطوة و يتحرك بحركة أن يعلم تفاصيل ذلك كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة السابقة من سورة الملك فالواضح البين أن الإنسان عندما يتحرك بحركة ما لا يدري كم عضلة تحركت أو كم من الأعصاب تشترك في هذه العملية العصبية فهذه من أكبر الأدلة على أنه ليس خالقا لأفعاله بل أن ذلك واقع بقوته من خلق الله تعالى (٣) وقد اعترض الخصوم المعتزلة على ذلك وقالوا في اعتراضهم أنه يكفي أن يعلم الإنسان ما حركاته وسكناته ولو على وجه كلي ولا يستلزم الأمر العلم بالتفاصيل

وأقول أن الاكتفاء بالعلم الكلي يكفي في الكسب فقط وهو ما يراه أهل السنة و يثبتونه للعبد ولا يكفي في الخلق والإيجاد وهو ما أثبته المعتزلة لقدرة العبد خاصة وأن الآية الكريمة تنص على أن الله يعلم من خلق إذ تنص على ذلك صراحة أي على وجوب العلم بالتفاصيل عند خلق الأشياء وإيجادها وهو ما ليس ثابتا إلا لقدرة الله سبحانه وتعالى وبعد بيان أهل السنة هذه وجهة النظر لكل من الفريقين أهل السنة والمعتزلة والرأي في خلق أفعال العباد عن وجهين النظر في أدلتها والرد على الخصوم بالمقصد حتى يكمل البحث ونكمل المسألة وهذه أدلة كل فريق والرد على المخالف :

---

(١) راجع الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام – ص ٩٠

(٢) الآية من سورة الملك : رقم ١٤

(٣) شرح المقاصد للسعد ج٢ ص ١٢٩ – شرح المواقف للإيجي ج٣ ص ١٤٨ – نهاية الإقدام – ص ٨٧

أدلة أهل السنة على أن الله خالق لأفعال عبده الاختيارية وأن العبد ليس له فيها سوى الكسب والاختيار :

يستدل أهل السنة على مدعاهم بأدلة كثيرة بعضها عقلي والآخر نقلي .

أولا : الأدلة العقلية :

الدليل الأول :-

يرى أهل السنة أن الله تعالى خالق لأفعال عباده الاختيارية وأن العبد ليس له فيها سوى الكسب والاختيار والكسب عندهم عبارة عن مقارنة قدرة العبد للفعل مع قدرة الله تعالى بلا تأثير لقدرة العبد في الفعل واستدلوا على ذلك بأن العبد حال الفعل إما أن يمكنه تركه ولا يمكنه تركه فإن لم يمكنه الترك فقد بطل قول الخصوم (المعتزلة) وإن كان يمكنه الترك فإما أن لا يفتقر ترجيح الفعل على الترك إلى مرجح وهذا باطل في حكم العقل لأنه لا ترجيح بدون مرجح وإلا لكان ترجيح لأحد طرفي الممكن على الآخر بلا مرجح وهذا ما لم يقل به عاقل أيضا أو يفتقر ذلك للمرجح أي مرجح آخر فيكون التسلسل وتسلسل المرجحات بلا نهاية باطل إذن لا بد من مرجح خارج عن دائرة العقل وليس إلا الله تعالى وعليه فمتى وجد المرجح وجب الفعل ومتى لا يوجد المرجح يمتنع الفعل إذن ليس العبد مستقلا بالاختيار في الإيجاد وعدمه (١) .

---

(١) شرح المواقف ج٨ ص ١٥٠ شرح المقاصد ج٢ ص ١٢٢ محصل أفكار المتقدمين ص١٩٤ .

الدليل الثاني

فقالوا : أي أهل السنة لو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفاصيلها لكن عدم علمه بالتفاصيل دال أن العبد ليس موجداً لأفعال نفسه بل هي كائنة بقدرة من الله تعالى (١)

الدليل الثالث : -

لو كان العبد موجداً لأفعاله لتساوت قدرته مع قدرة الحق تعالى فلو فرض أن العبد أراد تسكين جسم وأراد الله تعالى تحريكه فإما أن لا يقع معاً وهذا الفرض مرفوض لوقوعه في دائرة المحال وإما أن يقع أحدهما دون الآخر وهو باطل لأن الفرض أن القدرتين متساويتان بالنسبة للمقدور الواحد أو يقعا معاً وهذا مستحيل لأن فيه الجمع بين الشيء وضده (السكون والحركة) (الفعل والترك) وعليه فالعبد لا يوجد أفعاله إنما هي بقدرة الله تعالى (٢) وهذا صحيح هو القول أن الله خالق للفعل وليس للعبد سوى الكسب فهي واقعة بقدرة الله تعالى وللعبد فيها الكسب والاختيار . فالحق أن فعل العبد فعل له حقيقي ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله تعالى ليس هو نفس فعل الله فرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق وإلى هذا المعنى أشار صاحب العقيدة الطحاوية بقوله : وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد أثبت للعباد فعلاً وكسباً وأضاف الخلق إلى الله تعالى والكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر كما قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (٣)

(١) الشهرستاني : نهاية الإقدام ص ٨٧ ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٩٤

(٢) المحصل ص ٩٥ وانظر شرح [illegible] فخر الدين الرازي : معالم أصول الدين ص ٩٩ مكتبة الكليات الأزهرية

(٣) المرجع السابق ص ٦٥١

سورة البقرة آية رقم (٢٨٦) والله تعالى بهذا المعنى لا يوصف بالاجبار فهو سبحانه خالق الإرادة والمراد قادر على أن يجعله مختاراً بخلاف غيره ولهذا جاء في الفاظ الحديث كلمة " الجبل " دون الجبر ويشرح هذا ما جاء في حديث رسول الله (ﷺ) لاشج عبد القيس " إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والاناة فقال أخصلتين تخلقت بهما ؟؟ أم خصلتين جبلت عليهما ؟؟ فقال (ﷺ) بل خصلتين جبلت عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله " (٢). هذا هو الرأي عند أهل السنة وهذا هو استدلالهم عليه من العقل وقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بأدلة النقل وسنأتي تباعاً عند ردودنا على المعتزلة على ما سيأتي الآن إن شاء الله تعالى :

أدلة المعتزلة على ما ذهبوا إليه

١ – قالوا إن العبد يحدث فعله والعلم بذلك أمر ضروري هكذا زعم المعتزلة ادعاء ذلك بالضرورة وفي نظرهم أن هذا الحكم مركوز في عقل العقلاء التاركين للتعصب والتقاليد فضرورة العقل عند هؤلاء تفرق بين حركات الإنسان الإختيارية والأخرى الإضطرارية وما أتت هذه التفرقة إلا لأن الأولى بقدرة العبد والثانية بقدرة الرب تعالى (٣) على أنه بالامكان أن نرد على هؤلاء حججهم بأنه قد ثبت ذلك للعبد وصفاً واخباراً على معنى أن الإنسان قد ليس له سوى الكسب والإختيار (٤)

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥١

(٢) الحديث رواه البخاري في الأدب المفرد كما رواه أبو داود في سننه والطبراني في الكبير

(٣) راجع شرح المقاصد ج٢ ص ١٣١ أيضاً شرح المواقف ج٢ ص ١٥٢

(٤) راجع نهاية الاقدام في علم الكلام ص ٨٤ وما بعدها ، راجع تفصيلا أكثر معالم أصول الدين – ص ٨٠ وما بعدها

ولا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجد وجوده بمشيئة الله تعالى كما قال عز من قائل ﴿ ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾ سورة الشمس ٧ ، ٨ ففي الآية قال ألهمها فجورها بيان بقدرة الله فألهمها وإثبات للعبد بعد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة وهي التي تتقي وما قيل هنا يقال في قوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها ﴾ الشمس آية ٩ ، ١٠ ففي هذه الآية كذلك إثبات لفعل العبد من تزكية النفس وخسرانها بفعل المعاصي والآيات في هذا المجال كثيرة مبثوثة في كتاب الله عز وجل (١) .

٢ – ولقد استشكلوا مسألة التكاليف الشرعية ومسألة الثواب والعقاب إذ كيف يعاقب الله العباد على أشياء لم يوجدوها بأنفسهم بل من الله تعالى (٢) وقد حقق هذا الاعتراض وتكلم فيه بإسهاب شارح العقيدة الطحاوية حيث ذكر آراء الطوائف فيه فقال : وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التي فرقتهم بل مزقتهم كل ممزق وهي أنهم قالوا كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم (٣) فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم ؟؟ ثم قال بعد هذا الكلام ذاكراً آراء العلماء وهذا السؤال لم يزل مطروحاً في العالم على ألسنة الناس وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته وعنه تفرقت بهم الطرق فطائفة أخرجت أفعاله عن قدرة الله تعالى وطائفة أنكرت الحكم والتعليل وسدت باب السؤال وطائفة أثبتت كسباً لا يعقل جعلت الثواب والعقاب عليه وطائفة التزمت لأجله

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٤٤ وراجع تفصيلاً أكثر معالم أصول الدين ص ٨٣
(٢) انظر نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٨٤ وما بعدها
(٣) راجع مختصر الصواعق المرسلة ص ٢٣٥ – ٢٣ وانظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام / ابن تيمية – ج٨ – ص ٢٢١ – ٢٢٧ .

وقوع مقدورين قادرين ومفعول بين فاعلين وطائفة الزمت بالجبر وان الله يعذبهم على مالا يقدرون عليه وهذا السؤال هو الذي أوجب هذا التفرق والاختلاف] (١) .

هذه جملة الآراء في هذا الاعتراض حكاها لنا صاحب شرح العقيدة الطحاوية وغيره ومن بينها عرض المعتزلة واستشكالهم بنساء العقاب والنعيم على الحساب في الأعمال

واقول ردا على المعتزلة في استشكالهم هذا الحق فيه انه مرفوض بحسما اثبت أهل السنة للإنسان في عمله حرية واختيار لا جبرا ولا قهرا ولا قسرا والإنسان مما يشعر بهذا القدر من الحرية في عمله فقط وهذا القدر كاف في الحكم عليه فمدار التكاليف وما يترتب عليها من ثواب وعقاب ليس على الخلق كما ادعى ذلك المعتزلة وإنما ذلك على اكتساب العبد اياه مضاف إليه العزم والتصميم على فعله على ان النصوص المطهرة تؤيد ذلك فمن السنة الشريفة قول الرسول (ﷺ) [ان الله كتب الحسنات والسيئات وبين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وان هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة](٢) فالحديث المذكور يرشدنا بل يدلنا دلالة صريحة على ان المحاسبة على الأعمال انما يكون على النية والقصد والعزم والتصميم ومعلوم ان النية هي من قصدنا وتصميمنا واما الفعل فهو مخلوق لله تعالى إعانة وكل يشاهد من نفسه انه ما اوجد فعل نفسه لولا ان الله وهبه الأسباب ومنحه القدرة على الفعل ولولا ذلك ما استطاع الانسان ان يفعل شيئا من الأشياء فكانت الاعانة من الله تعالى ثم ان مسالة الحساب من الثواب

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٤٥

(٢) مختصر النبراوي على الاربعين النووية ص ١٣٤ وما بعدها ط ٣ ١٩٩٦ للاستاذ فرج الجندى

والعقاب وهي التي يستدل بها المعتزلة على أهل السنة فيه تكمن [كما ذكرت أكثر من مرة] فيها القصد والتصميم والعزم عليها كما يتضح ذلك من حديث رسول الله (ﷺ) السابق ذكره)

فيحق أن الانسان من إذا صرف قدرته التي هي هبة من الله تعالى والتي أعطاه الله إياها فإن نوى بها خيرا كان الجزاء خيرا وإن نوى بها شرا كان الجزاء من جنس العمل أي كان الجزاء شرا ولذلك أحسن من قال إن العمل بالمعنيين على أن الأولى على قدرة الله إنما هي للخلق والإيجاد وأما الثانية فهي للكسب والوصف والاختيار بحيث يؤثر في كونه طاعة أو معصية يثاب عليها أو يعاقب وهذا هو الثابت عند أهل السنة واستقر عليه الرأي عندهم كما سبق الكلام عليه أكثر من مرة (١)

وقد حسن ابن أبي العز الحنفي في رده على المعتزلة عندما ذكر أن [الجواب الصحيح أن يقال إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقا لله تعالى فهي عقوبة له على ذنوب قبلها ، فالذنب يكسب الذنب ومن عقاب السيئة السيئة بعدها فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضا] (٢) ويبقى يستشكل بالذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب فكيف يعاقب عليه بعد وهو خلق لله تعالى يجيب عن هذا الاستشكال فيقال هو عقوبة أيضا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه فإن الله تعالى خلق الإنسان لعبادته وحده كما فطره على محبته وتوحيده على ما قال عز من قائل (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

(١) انظر محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٩٥ وما بعدها وانظر مطالع الأفكار ص ١٩١ وما بعدها وراجع مفصلا كتاب معالم أصول الدين - ص ٨٤

(٢) انظر المرجع السابق وانظر شرح المقاصد ج٢ ص ١٣٦ وشرح المواقف - ج ٣ - ص ١٥٣ وراجع نهاية الأقدام - ص ٨٤ وما بعدها .

(٣) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٤٥

فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ سورة الروم آية (٣) فالإنسان لما لم يفعل ما خلق من أجله وجبل عليه وخالف الفطرة عوقب على ذلك قرين له الشيطان فعل المعاصي فإن صادف قلبا مؤمنا سبب فعل الخيرات وإلا حصل العكس وقد قال تعالى في حق سيدنا يوسف عليه السلام ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ سورة يوسف آية (٢٤)، وفي قصة إبليس وتوعده لعباد الله يعني ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ استثنى فقال ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ سورة ص آية رقم ٨٢ ، ٨٣ ، وقد عقب الله على توعد إبليس هذا بقوله عز من قائل ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ سورة الحجر آية (٤٢) فما فرغ العبد قلبه لطاعة الله وتوحيده لم يتمكن الشيطان من نفسه لكن لما أشرك مع الله غيره ولم يفرغ قلبه لطاعته كان جعله مسببا أو مذنبا يستحق العقوبة على عدم الإخلاص والمحبة لله تعالى وهذا غاية العدل من مولانا تبارك وتعالى (١)

هكذا حسم الأمر ورد على المعتزلة حججهم النقلية بالأدلة العقلية كذلك بقي علينا أن نقول إن كلا الفريقين على أهل السنة والمعتزلة قد دعم رأيه بآيات الله تعالى فإلى الحديث عن أدلة القرآن عند الطرفين .

أولا . الأدلة التي استدل بها المعتزلة من القرآن على مذهبهم

والحق أن صاحب كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين جمع حججهم وحصرها في عشرة أدلة فلنوجزها هنا ونرد عليها إن شاء الله تعالى .

---

(١) نفس المرجع : ص ٦٤٦

الدليل الأول: قالوا إن في القرآن آيات تضيف الفعل إلى العباد على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ (٢) ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴾ (٣) وغيرها من آيات في المعنى

ثانيا: قالوا إن ما في القرآن من آيات تدل على مدح المؤمن على أعماله الإيمانية وذم الكافر على الكفر ووعد الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية مثل قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (٤) ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ (٥) إلى آخر

ثالثا: هناك آيات تدل على أن أفعال الله تعالى منزهة عن أن تكون مثل أفعال المخلوقين مثل قوله تعالى ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ (٦) ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (٧) والكفر ليس بحسن ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (٨) والكفر ليس بحق إلى آخر تلك الآيات في المعنى

رابعا: الآيات الدالة على ذم العباد على الكفر والمعاصي مثل قوله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ (٩) والإنكار والتوبيخ مع العجز محال وعند أهل السنة أن الله تعالى خلق كل شيء وقته

(١، ٢، ٣) الآيات على التوالي سورة البقرة آية رقم ٧٩ – سورة يوسف آية رقم ١٧ – سورة المائدة آية رقم ٣٠

(٤، ٥) الآيات على التوالي سورة غافر آية رقم ١٧ – الأحقاف ٢

(٦، ٧، ٨، ٩) الآيات على التوالي سورة الملك آية رقم ٣ – سورة السجدة آية رقم ٧ – سورة الأحقاف آية رقم ٣ – سورة البقرة آية رقم ٢٨

الكفر في الكافر فكيف يعاقبه عليه وذكروا في هذا المعنى آيات كثيرة (١)

خامساً: هناك آيات دلت على أن العباد يفعلون بمشيئتهم وإرادتهم مثل قوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٢) وقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ (٣) ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ (٤) وفي المعنى آيات كثيرة .

سادساً: من الآيات آيات حثت العباد على المسارعة في أفعال الخير مثل قوله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ﴾ (٥) ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ (٦) وفي المعنى آيات كثيرة أيضاً تدل على أن للعباد أفعالاً يسارعون لها

سابعاً: هناك من الآيات حث الله فيها عباده على الاستعانة به مثل قوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (٧) ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ (٨)

وإذا كان تعالى قد خلق الكفر والمعاصي فكيف يطلب منه الاستعانة (٩)

---

(١) راجع المحصل : ص ١٩٧

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) الآيات على التوالي سورة الكهف آية رقم ٢٩ ، سورة فصلت آية رقم ٤٠ ، سورة التكوير آية رقم ٢٩ ، سورة آل عمران آية رقم : ١٣٣

(٦ ، ٧ ، ٨) سورة الزمر آية رقم ٥٥ ، الفاتحة ٥ ، البقرة ٤٥

(٩) راجع المحصل ص ٩٨

سابعاً: من الأدلة التي أقاموها على مذهبهم الآيات الدالة على اعتراف الأنبياء بذنوبهم فهذه الآيات في نظرهم تدل على أن بعد كل نبي فعله المعصية من مثل قوله تعالى ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ حكاية عن سيدنا آدم عليه السلام وعن سيدنا يونس عليه السلام ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وعن موسى عليه السلام ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ (٣) ففي هذه الآيات اعتراف من الأنبياء بذنبهم

ثامناً: اعتراف العصاة والتابعين بين قولهم كانت منهم ومعصيتهم مثل قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ (٤) إلى قوله تعالى ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾) وقوله تعالى ﴿ ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين ﴾ (٥)

تاسعاً: هناك بعض الآيات ذكرت تحسر الكفار يوم القيامة على ما فرط منهم وطلب الرجوع مرة أخرى لعمل الصالحات وهيهات هيهات مثل قوله تعالى ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ﴾ (٦) وقوله عز من قائل ﴿ قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت ﴾ (٧) وفي الباب آيات كثيرة من قبيل تلك هذه

(١، ٢، ٣، ٤، ٥) الآيات سورة الأنبياء آية رقم ٨٧ سورة القصص ١٦ سورة سبأ ٣١، ٣٢ سورة مدثر ٤٢-٤٤)

(٦) سورة فاطر آية رقم ٣٧

(٧) سورة المؤمنون آية رقم ١٠٠

جملة من الأدلة استخدمها المعتزلة للدليل على ما يريدون الوصول إليه وأكون ردا على هذه الاستدلالات التي بها يثبتون دعواهم أنه

أولا : هي على كثرتها وتعدد أوجه الاستدلال بها إلا أنها معارضة بآي القرآن الأخرى التي تثبت الفعل لله تعالى وأنها واقعة بقدرته وإرادته تعالى ومشيئته وهي كثيرة جدا ستأتي قريبا عند استدلالنا على ما ذهب إليه أهل السنة

وعليه فلابد من التوفيق بين هذه الآيات وإلا حصل التعارض في كتاب ربنا عز وجل كيف وهو المحكم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١)﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٢).

ثانيا : بإمكاننا أن نعقب على هذه الآيات أيضا التي استدلوا بها بأنها حتى وإن أسندت الأعمال إلى العباد أنفسهم إلا أنه يمكن حملها إلى أنها مجازات عن الكسب العادي الذي ليس له تأثير في الحقيقة ، على معنى أنه أسندت الفعل إلى قدرة العباد لكن لا على أنها خالقة ، ثم بنى على أن العباد محل لها وقائمة بهم من هنا لا تصلح أن تكون دليلا على مدعاهم ، إذ لم يستقم لهم الاستدلال بها (٣)

ثالثا : أن إثبات الفعل لله تعالى سبيله الإجماع فإن السلف الصالح ومن بعدهم بإحسان استقرت كلمتهم على ذلك حتى جاء المعتزلة فقالوا ما قالوا فلم يثبت عنهم أبدا أنهم قالوا بمثل ما قال به المعتزلة بل الذي وصلنا عنهم واستقر الرأي عليه أنهم كانوا يدا واحدة يحظرون على أن

---

(١) سورة فصلت - آية رقم ٤٢

(٢) سورة النساء ، آية رقم : ٨٢

(٣) السعد : شرح المقاصد ج٢ ص ١٠٤ المحصل ص١٩٨ للرازي

الله هو الخالق لكل شيء وأن كل شيء في الحقيقة إنما مصدره الحقيقي هو الله عز وجل (١) .

وبقد أحسن الغزالي رضي الله عنه عندما قال :

[وقد لزمت المعتزلة شناعتان عظيمتان .

إحداهما : إنكار ما أطبق عليه السلف رضي الله عنهم وأنه لا خالق إلا الله ولا مخترع سواه .

والثانية : نسبة الاختراع والخلق إلى قدرة من لا يعلم ما خلقه من الحركات] (٢) .

رابعاً : أما استدلالهم بالآيات المشتملة على الوعد والوعيد فقد رد أهل السنة عليهم بأن المقتضي للثواب والمدح والعقاب والذم إنما هو السعادة والشقاوة ، وقد قال تعالى ﴿ وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ وأما الذين شقوا ففي النار ﴾ (٤)

والسعادة والشقاوة حقيقة مكتوبة للعبد قبل وجوده وقد قال (ﷺ) " السعيد من سعد في بطن أمه ، والشقي من شقي في بطن أمه " على أن الأعمال الصالحة إنما هي أمارة وعلامة تدل على سعادة وقبول صاحبها كذلك الأعمال السيئة إشارة ودليل على شقاوة فاعلها وترتب الثواب على الصالح والعقاب على الصالح إنما ذلك دلالة وعلامة للثواب والعقاب وليست موجبات لها (٥) وأما استدلالهم على مدعاهم باعتراف

---

(١) راجع الغزالي الاقتصاد في الاعتقاد ص ٤٠، ٤١ طبعة سنة ١٣٢٠ هـ

(٢) انظر المرجع السابق : ص ٤١

(٣ ، ٤) الآيتان على التوالي : سورة هود ، وسورة يوسف

(٥) راجع دكتور مبارك حسن حمد علم التوحيد في ضوء العقل والنقل ص ٢٦٩

الأنبياء بذنوبهم فيما تقدم وما سبق أن قلناه من أن ذلك معارض بالآيات التي أسندت الفعل لله عز اسمه وسيأتي ذكر بعضها عند التعرض لأدلة أهل السنة على ما ذهبوا إليه (١) والحق في المسألة أننا وإن كنا قد منعنا أن يكون العباد موجدين لأفعالهم لكننا من الناحية الأخرى نقر بكونهم فاعلين لها ومكتسبين إياها فالعبد متى صمم عزمه على الطاعة فإنه تعالى يخلقها ومتى صمم عزمه وصمم على المعصية فإنه يخلقها وبناء على هذا التقدير يكون العبد كالموجد لفعله وهذا القدر كاف في الأمر والنهي والثواب والعقاب والعاقل من يفهم ذلك ثم إن الوصف كاف في إثبات الحكم على العباد فالأفعال ذاتها وإن حصلت بقدرة الله تعالى لكن لا ننكر أن لها وصفا فنقول في ذاك الوصف بالنسبة للعبد هذا خير يثاب عليه وهذا شر يعاقب عليه فالطاعة والمعصية صفات حاصلة للفعل وهي واقعة بقدرة العبد فلم لا يكفي هذا في صحة الأمر والنهي كما سبق البيان (٢)

بقي علينا أن نختم بحثنا هذا بأدلة أهل السنة على مذهبهم من الكتاب الحكيم .

أدلة أهل السنة

هناك آيات كثيرة مبثوثة في كتاب الله عز وجل تثبت أن الفعل لله تعالى نأخذ منها على سبيل المثال لا الحصر آيات تدل على عموم قدرته تعالى ومشيئته النافذة في خلقه بل لجميع ما في الكون من الأعمال والأفعال فالخالق تعالى منفرد بخلق الأشياء لا خالق سواه عز اسمه وبهذا صار العباد مطيعين لله أو عاصين حسب الوصف الذي قدموه لأنفسهم عند الله فهي كسبهم ومن تصميمهم وبناء عليه فكل دليل يقيمه المعتزلة فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مريد له مختار به

---

١ قارن محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٩٩ وانظر المرجع السابق ص ٢٧ .

٢) قارن الفخر الرازي محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٩٨

حقيقة وإن أضافه ونسبه إليه إضافة حق لكن لا يعني على الله غير مقدور لله تعالى أو أنه واقع بغير مشيئته وقدرته (١) وأكبر دليل على ذلك هذه الآيات التي سوف نذكرها لأهل السنة منها ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾(٢) فلا حجة للمعتزلة قائمة بعد هذه الآية الكريمة وقد علق عليها السعد في شرحه حيث ذهب إلى أنها مخالفة للأساليب في إفادة المطلوب والظاهر من هذه الآية أن جميع الأفعال خيرها وشرها إنما هي واقعة بقدرته تعالى ومشيئته حيث أنها من الأمور الممكنة الواقعة تحت تأثير قدرته وإرادته سبحانه (٣) والحق تعالى لا يقع في ملكه إلا ما يريد كما أن المعاصي لا تقع جبرا عنه تعالى الله (٤)

٢ – ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٥)

فالآية صريحة في أن الله تعالى لا يخرج عن تقديره وخلقه شيء فالله خالق وكل شيء مخلوق وأفعال العباد مخلوقة فدخلت في عموم (كل) وربما أفسد المعتزلة الاستدلال بالآية وذلك بإدخال كلام الله وصفاته تعالى في عموم كل ، وصفاته يستحيل عليها أن تكون مخلوقة من هنا أخرجوا أفعال عباده التي هي مخلوقة من عموم (كل) كما خرجت صفاته لكن نقول لهم هل يدخل في عموم (كل) إلا ما هو مخلوق ومن المعلوم أن الله وصفاته غير داخلة في هذا العموم لأنها ليست مخلوقة وإنما هي قديمة أزلية ودخلت سائر المخلوقات في عمومها لأنها حادثة ومفعولة لغيرها بعكس صفات الله تعالى (٦)

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية – ص ٦٤٠ ، ٦٤١

(٢) سورة النساء : آية رقم ٧٨

(٣) شرح المقاصد للسعد الدين التفتازاني ج٢ – ص ١٣٤

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢ ص ٤٤ طبع القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ

(٥) سورة الزمر : آية رقم ٦٢

(٦) انظر شرح العقيدة الطحاوية : ص ٦٤٣ وقد كتبت بحثا في العدد السابق عن صفة الإرادة بين التقييد والنفي وتحدثت فيه عن هذه المسألة وبينت

٢ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

فهذه الآية الكريمة تعتبر عمدة أهل السنة فيما ذهبوا إليه من كون الأفعال مخلوقة لله تعالى، و(ما) في الآية الكريمة يمكن جعلها مصدرية أو جعلها موصولة فإن جعلت ما مصدرية فيكون المعنى على هذا والله خلقكم وخلق عملكم وإن جعلت ما موصولة كان المعنى عليه والله خلقكم والذي تعملونه فتعملون هو صلة الموصول (ما) والعائد محذوف (٣) والتقدير (والله أعلم) خلقكم والذي تعملونه هذا وإن استدلال أهل السنة بهذه الآية قد جر عليهم كلاما كثيرا ونقاشا حادا من خصومهم المعتزلة ورأى غير بعض أهل السنة نفي مصدريته معنى أن تكون (ما) مصدرية وتمسكوا بأن تكون موصولة وعليه يكون المعنى في الآية الكريمة المعمول لا العمل أي المنحوت وهي الأصنام لا النحت وعلى فرض كونها مصدرية فإنها قد تكون بمعنى المعمول لا العمل بدليل قوله تعالى قبل الآية المذكورة ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) وعلى ذلك يكون المعنى المنحوت لا النحت إذ أنهم ما عبدوا النحت إنما عبدوا المنحوت وهو الحجر وفي رأيي ورأي بعض الباحثين أن اعتراض المعتزلة على هذه الآية هو اعتراض قوي يكاد يكون أقوى من استدلال أهل السنة بها

- أن الله لا يقع في ملكه إلا ما يريد واسهبت في الحديث عن ذلك ما يشبع النهم ويروي الظمأ فليرجع إلى البحث من أراد المزيد

(٢) سورة الصافات آية رقم ٩٦

(٣) الفخر الرازي التفسير الكبير ج٢٦ ص١٥٠ وما بعدها طبعة سنة ١٣٨٩ هـ أيضا أبو الحسن الأشعري اللمع ص ٣٧ كذلك البيجوري على الجوهرة ج٢ – ص٦

(٤) سورة الصافات آية رقم ٩٥، ٩٦

ودليلى على ذلك ان بعض أهل السنة رأى هذا الرأى واعترض على الآية بمثل ما اعترض به المعتزلة وفضلوا ترك الاستدلال بها والآيات فى الباب غيرها كثيرة على سبيل المثال نرى ابن ابى العز يعلق على هذه الآية بما حاصله [ولا نقول لان ما مصدرية أى خلقكم وعملكم إذ سياق الآية يأباه لان ابراهيم عليه السلام إنما انكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى وهو ما صار منحوتا إلا بفعلهم فيكون ما هو من اثار فعلهم مخلوقا لله تعالى ولو لم يكن النحت مخلوقا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقا له بل الخشب أو الحجر لا غير] (١) . من هنا قلت – كما سبق -

ان اعتراض المعتزلة وغيرهم على هذه الآية هو اعتراض قوى فهو من القوة والمتانة كما نرى يكاد يكون اقوى من استدلال اهل السنة بها لذا نجد الفخر الرازى رضى الله عنه يعقب على ذلك فيقول بعد كلام طويل شرح فيه استدلال اهل السنة بهذه الآية واعتراض المعتزلة عليها نستمع إلى تعليقه بعد أن شرح راى الفريقين يقول : [واعلم أن هذه السؤالات قوية – اى من المعتزلة – وفى دلائلنا كثرة فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم] (٢)

نعم فى دلائلنا كثرة فى كتاب الله عز وجل ولذلك لو فتشنا فى كتاب الله لوجدنا الكثير منها تؤيد مدعانا على سبيل المثال يقول الله تعالى ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ (٤)

---

(١) ابو العز الحنفى : شرح العقيدة الطحاوية – ص ٦٤٣ ، ٦٤٤ .
(٢) الفخر الرازى : التفسير الكبير – ج٧ – ص ١٥٣ .
(٣ ، ٤) الآيات على التوالى : سورة الأنعام : آية رقم : ٣٩ – سورة الاعراف : آية رقم : ١٥٥ .

حكاية على لسان موسى عليه السلام كذا قوله تعالى ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (٢) وقوله تعالى : [فعال لما يريد] فهذه جملة استدلالات من الكتاب العزيز تدل على أن جميع الأفعال بقضاء الله وقدره وهي تغنينا عن الاستدلال بالآية السابقة ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ هذا هو نهاية المطاف في كلامنا عن أفعال العباد وما قيل فيها والله تعالى أعلى وأعلم وأجل وأقدر وله الحمد في الأولى والآخرة وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

(١ ، ٢) الآيات على التوالي سورة البقرة : آية رقم ٧ – سورة الأنعام : آية رقم : ١٢٥

فهرس المراجع والمصادر

١- كتاب الله تعالى : القرآن الكريم .

٢- السنة الشريفة المطهرة .

أ- صحيح البخارى

ب- صحيح الإمام مسلم

ه- سنن ابى داود

و- المعجم الكبير للطبرانى .

٣- اشارات المرام : كمال الدين البياضى .

٤- جامع الرسائل : شيخ الإسلام : ابن تيمية .

٥- حاشية الصاوى على شرح الخريدة : الشيخ / احمد الدردير - طبعة سنة ١٣٢٨ هـ .

٦- شرح البيجورى على الجوهرة : شيخ الإسلام : ابراهيم البيجورى .

٧- شفاء العليل : ابن قيم الجوزية .

٨- شرح المقاصد : سعد الدين التفتازانى .

٩- شرح المواقف : عضد الدين الايجى .

١٠- شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبى العز الحنفى - تحقيق د / التركى .

١١- حادى الأرواح : ابن القيم .

١٢- شرح مطالع الأنظار على طوالع الانوار : الاصفهانى - سنة ١٣٢٣هـ .

١٣- صفة الإرادة بين الاثبات النفي : د / عبد المعبود سالم .

١٤- الطبقات الكبرى للشافعية : الشيخ / السبكى .

١٥- العقيدة الواسطية : شيخ الإسلام / ابن تيمية – تحقيق د / هراس .

١٦- علم التوحيد في ضوء العقل والنقل : د / مبارك حسن حسين .

١٧- الاقتصاد في الاعتقاد : أبو حامد الغزالي – حجة الاسلام .

١٨- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع : أبو الحسن الأشعرى .

١٩- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين : فخر الدين الرازى .

٢٠- معالم أصول الدين : فخر الدين الرازى .

٢١- مختصر الصواعق المرسلة : شيخ الإسلام ابن تيمية .

٢٢- مجموع الفتاوى : شيخ الاسلام : ابن تيمية .

٢٣- مختصر النبراوى على الاربعين النووية : عبد الرحيم فرج الجندي .

٢٤- نهاية الاقدام في علم الكلام : الشهرستاني .